غزوة بنى النضير

الرسول يخشى غدر اليهود ويختبرهم ليكشف نواياهم

كانت غزوة بنى النضير أثرًا من آثار غزوة أحد، لأنها وقعت فى تلك الفترة العصيبة التى جاءت فى أعقابها، والتى كان المسلمون فيها لا يزالون يعانون من آثار الهزيمة فى تلك الغزوة.. كانوا لا يزالون فى شعث من أمرهم، وكان كل ما يحيط بهم ثائرًا عليهم، فاليهود والمنافقون الذين يساكنونهم فى المدينة، والأعراب الذين يجاورونهم فى البادية، والمشركون الذين يناوئونهم فى مكة.. كل أولئك كانوا يشتركون فى شعور واحد، هو شعور البغض والعداوة للمسلمين؛ ويتعاونون على فكرة واحدة، هى الخلاص من محمد وصحبه؛ ويرمون إلى هدف واحد هو القضاء على الإسلام ودعوته. وفى مثل هذه الظروف يكون العدو القريب أشد خطرًا من العدو البعيد، ويكون الخطر الداخلى أبعد أثرًا من الخطر الخارجى، ويكون الجو مهيأً كل التهيؤ للكيد والدسيسة، وكشف العورات وانتهاز الفرص.

وقد كان اليهود والمنافقون هم العدو القريب من غير شك، وكانت مظاهر العداوة تنضح بها نفوسهم وتنطق بها ألسنتهم، ولم يكن من المستحيل عليهم أن ينتهزوا أى فرصة ليطعنوا المسلمين من ورائهم، فقد كان المسلمون فى هذه الفترة الحرجة يتوقعون الغدرة من كل عدو، ويترقبون الطعنة من كل جانب، ولا سيما بعد أن ظهرت بوادر الغدر بهم فى واقعتى الرجيع وبئر معونة، وذهب ضحية الغدر فيهما هذا العدد الجم من الأصحاب والقراء.

لم يكن النبى ﷺ إذن بحيث يأمن غدرة اليهود والمنافقين فى المدينة، ولم يكن يطمئن إلى وفائهم وإخلاصهم.. أما المنافقون فقد استتروا بستار الإسلام، فلم يكن للنبى ولا للمسلمين أن يكشفوا ستر الإسلام عنهم؛ وأما اليهود فقد كانوا على عهد مع النبى أن يتركوه ودينه ويتركهم ودينهم، وألا يمالئوا عليه عدوًّا ولايظاهروا عليه أحدًا. ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يؤمَنون؛ فقد بدت مظاهر الغدر منهم فى كثير من الحالات، وكاشف فريق منهم بالعداوة فأجلاهم الرسول عن المدينة، وسعى أفراد منهم بالغدر فأوقع المسلمون بهم. وقد كان ذلك والمسلمون فى فورة النصر بعد غزوة بدر، فكيف والمسلمون فى زعزعة الهزيمة بعد أحد؟ أليس الغدر فى مثل هذه الحال أقرب ما يكون احتمالا

وأكثر توقعًا؟ لم يكن ذلك أمرًا بعيد الوقوع من اليهود، لا سيما وهم على تِرَة من النبي وأصحابه، بعد أن أخرجوا إخوانهم بني قينقاع، وبعد أن قتلوا زعيمهم وشاعرهم كعب بن الأشرف.

القرآن الكريم يحذر منهم

وقد كشف الله للمؤمنين عن سرائر اليهود في هذه الفترة، وحذرهم أن يثقوا بهم أو يطمئنوا إليهم، فقال سبحانه: ﴿يا أيها الّذين آمنوا لا تتّخِذوا بطانةً من دونِكم لا يَألُونكم خبَالا ودُّوا ما عَنِتم قد بدت البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صُدورهم أكبر قد بيَّنّا لكم الآيات إن كنتم تعْقِلون * ها أنتم أولاء تُحبُّونهم ولا يحبُّونكم وتؤمنون بالكتاب كلّه وإذا لَقوكم قالوا آمنّا وإذا خَلَوا عضُّوا عليكم الأناملَ من الغَيْظ قل موتوا بغيظِكم إنّ الله عليمٌ بذات الصدور * إن تَمسَسْكم حسنةٌ تَسؤهم وإن تُصبكم سيئةٌ يفرحُوا بها وإن تصْبروا وتتّقوا لا يضرُّكم كيْدُهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط﴾[1].. فكان المؤمنون أجدرَ أن يحذروهم في هذه الآونة، وكان لا بد أن ينتهز الرسول فرصةً ما ليختبرهم، ويكشف عن نواياهم في هذا الظرف العصيب؛ فانتهز فرصة القتيلين اللذين أصابهما عمرو بن

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١١٨ - ١٢٠.

أمية من بنى عامر، فذهب إلى بنى النضير ليستعين بهم فى دِيَة هذين القتيلين؛ وكان بنو عامر حلفاء بنى النضير.

بنو النضير يحاولون الغدر بالنبى

قال ابن إسحاق: «خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذَيْنِك القتيلين من بنى عامر.. للجوار الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عَقَدَ لهما.. وكَان بين بنى النضير وبين بنى عامر عَقْد وحِلْف؛ فلما أتاهم رسول الله يستعينهم فى دية ذَيْنك القتيلين قالوا: «نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه». ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله إلى جَنْب جدار من بيوتهم قاعد - فَمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه»؟ فانتَدب لذلك عمرو بن جحاش - أحدهم - فقال: «أنا لذلك». فصعد ليُلقى عليه صخرة كما قال؛ ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى، رضى الله عنهم. فأتى رسول الله الخبرُ من السماء بما أراد القوم؛ فقام وخرج راجعًا إلى المدينة. فلما استَلْبَث النبى أصحابهُ قاموا فى طلبه؛ فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته

داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبَر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم».

* * *

هكذا يقول ابن إسحاق، وبمثله أو قريب منه يقول غيره من كتاب السيرة النبوية.. فالكل مجمعون على أن بنى النضير هموا باغتيال النبى ﷺ فى هذه الفرصة، فعلم النبى بما دبروا له من الغدر، ففوّت عليهم غرضهم، ثم أنذرهم بأن يخرجوا من البلد الذى يساكنونه فيه، فأبَوْا، فأعلن الحرب عليهم، وحاصرهم فى مساكنهم حتى أجلاهم عن المدينة.

الدكتور ولفنسون يحامى عن اليهود

ولكن الدكتور إسرائيل ولْفِنْسُون يحاول فى كتابه «تاريخ اليهود فى بلاد العرب» أن يبرئ بنى النضير من هذه التهمة، ويتلمس الأسباب تلمسًا، لا ليبرئ بنى قومه فحسب، بل ليلقى التبعة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين فى كل ما وقع بهذه الغزوة، فقد زعم أن النبى غضب على يهود بنى النضير لأنهم لم يشاركوه فى واقعة أحد، فأراد لهذا أن ينتقم منهم، فأنذرهم بأن يخرجوا من آطامهم وينْزحوا عن يثرب فى مدة عشرة أيام،

وذلك حيث يقول فى كتابه ص ١٣٥ : «وكان إنذار الرسول ﷺ لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم فى واقعة أحد. وكأن الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة إلى مدينة يثرب، فكان على بنى النضير أن يخرجوا للقاء العدو كما تقضى شروط المعاهدة».

وكأنما أحسّ المؤلف أنه قد أحرج نفسه بهذا التعليل، لأن هذا الوضع ينطبق تمام الانطباق على يهود بنى قريظة، فاستدرك بعد هذا مباشرة يقول : «ثم يظهر أن بنى قريظة كانوا مرتبطين بعهد آخر غير عهد بنى النضير، وأن الشروط كانت غير شروط عهد بنى النضير، إذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك فى واقعة أحد كما طالب بنى النضير ولم يثأر منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثأر من بنى النضير».

مغالطة

ثم أراد أن يجعل هذا الفرض حقيقة واقعة وأمرًا مسلمًا به، فأردف يعلله بقوله : «وليس معقولاً أن يغضب الرسول من بنى النضير لعدم خروجهم إلى الوغى فى واقعة أحد، دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها».

فقد افترض المؤلف أن رسول الله ﷺ طالب بنى النضير بالاشتراك معه فى واقعة أحد، وأنه كانت هناك معاهدة بين

الرسول وبنى النضير تلزمهم بالاشتراك فى هذه الواقعة، وأخرى بينه وبين بنى قريظة لا تلزمهم بالاشتراك كما تلزم بنى النضير، وأنه لو لم تكن معاهدة بنى النضير ملزمة لما غضب الرسول على بنى النضير دون غيرهم من اليهود.

وهذا زعم يحتاج إلى سند تاريخى يؤيد صحته، وليس يكفى فيه مجرد الظن ولا تُغنى الفروض المنطقية عنه شيئًا.. فعلى أى سند تاريخى اعتمد المؤلف فى زعمه هذا؟.

دوران ولف

لم يذكر أحد من كتاب السيرة - لا تصريحًا ولا تلميحًا - أن رسول الله طالب بنى النضير أو غيرهم من اليهود بالاشتراك مع المسلمين فى واقعة أحد، أو أنه - حتى - لامهم أو عاتبهم على عدم خروجهم معه، بل الروايات كلها مجمعة على عكس ما ذهب إليه المؤلف، ومنها ما صرح بذلك تصريحًا لا يقبل التأويل. ولكن الدكتور إسرائيل يأبى إلا أن يصل إلى غرضه بأى وسيلة، سواء أبت عليه الروايات التاريخية أم طاوعت، وسواء أجمع المؤرخون على خلافه أم لم يجمعوا؛ وله فى ذلك طريقة ملفوفة وأسلوب دوّار، يحوم به ثم يحول حول الغرض، ثم لا يزال كذلك حتى يخيِّل إليه - أو يخيِّل هو إلى القارئ أنه

قد أصابه.. فهو يعمد أولاً إلى الرواية التى تتأبى عليه فيكذبها أو يضعفها أو يشكك فيها، ثم يتخذ من ذلك أساسًا يبنى عليه قاعدة، ثم يتجه بهذه القاعدة طردًا أو عكسًا كما يتطلب الغرض الذى يرمى إليه. أما الرواية الأخرى فهو يعمد إليها فيَلويها لَيًّا أو يحرّفها تحريفًا حتى تصل به إلى مراده.. وهو مذهب جرى عليه المؤلف كثيرًا فى كتابه، وأسلوب استخدامه كلما بدا له أن يخالف إجماع المؤرخين فى رأى، أو يذهب غير ما ذهبوا إليه فى موضوع.

وفى موضوعنا هذا استخدم المؤلف ثلاثًا من الروايات التاريخية؛ أولاها لابن إسحاق، والثانية لابن هشام - فيما يقول المؤلف - والثالثة لابن سعد صاحب الطبقات الكبرى.

فأما رواية ابن إسحاق فقد ذكر فيها ابن إسحاق من حديث «مخيريق» «أنه كان حَبرًا عالمًا، وكان رجلاً غنيًّا كثير الأموال من النخيل، وكان يعرف رسولَ الله ﷺ بصفته وما يجده فى علمه، وغلب عليه إلْفُ دينه فلم يزل على ذلك.. حتى إذا كان يومُ أحد - وكان يومُ أحد يومَ السبت - قال: «يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق».. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: «لا سبت لكم».. ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله بأحد،

وعَهِد إلى من وراءه من قومه : «إن قُتلت فى هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله».. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل؛ فكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول - فيما بلغنى - : "مخيريق خيرُ يهود"»

وأما رواية ابن هشام - فيما زعم المؤلف - فملخصها أن الأنصار سألوا النبى يوم أحد : ألا نستعين بحلفائنا من اليهود؟ فقال : «لا حاجة لنا فيهم».

وأما رواية صاحب الطبقات فمضمونها أن النبى خرج بالمسلمين إلى أحد؛ حتى إذا كان بالشيخين التفت فنظر إلى كتيبة خَشْنَاء لها زَجَل[1]، فقال : «ما هذه»؟ قالوا : حلفاء ابن أبىّ من يهود. فقال : «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك».

ولما كانت الروايتان الأخيرتان صريحتين كل الصراحة فى معارضة رأى المؤلف، فقد عمد إلى إحداهما - وهى رواية ابن سعد - فضعَّفها وغض النظر عنها، لأنها تتناقض مع ما قصه عن ابن إسحاق ثم عمد إلى الأخرى - وهى رواية ابن هشام فيما زعم - فشكك فيها وقال : بأنها زعم منسوب لغير ابن إسحاق، ثم عقَّب عليها بقوله : «غير أن المستشرقين يرتابون فى

(١) زَجَل : أصوات وضوضاء.

صحة هذا الحديث كما هو شأنهم فى كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن إسحاق، ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضب من بنى النضير بسبب عدم اشتراكهم معه فى يوم أحد، واتخذ من امتناعهم عن ذلك سببًا لإعلان الحرب على بنى النضير».

منطق عجيب

فما دام ابن هشام يروى عن غير ابن إسحاق فحديثه موضع الشك، وما دام حديثه موضع الشك فهو غير صحيح، وما دام غير صحيح فعكسه صحيح؛ وإذن فالرسول ﷺ لم يقل يوم أحد: «لا حاجة لنا فى اليهود»، وما دام لم يقل ذلك فهو فى حاجة إليهم، وما دام فى حاجة إليهم فلا بد أن يخرجوا معه، وما داموا لم يخرجوا معه فقد غضب عليهم، وما دام قد غضب عليهم «فقد اتخذ من امتناعهم عن الخروج معه سببًا لإعلان الحرب على بنى النضير»..

هذا هو منطق الدكتور إسرائيل ومنطق المستشرقين الذين أراد أن يستشهد بأقوالهم.. وإلا، فأى علاقة بين عدم صحة الرواية وبين غضب الرسول وانتقامه من بنى النضير؟ على أن الرواية مع هذا ليست لابن هشام ولكنها للزهرى كما ذكر ابن

كثير فى تاريخه «البداية والنهاية».

أما رواية ابن إسحاق فقد جعل المؤلف يعتصرها ويلويها حتى استطاع أن يخرج منها بأن الرسول أثنى على مخيريق؛ وما دام قد أثنى على مخيريق لأنه قد خرج معه، فقد غضب على غيره ممن لم يخرجوا معه، وما دام قد غضب على من لم يخرجوا معه فقد اتخذ من امتناع بنى النضير سببًا لإعلان الحرب عليهم، وهذا ما أراده المؤلف حين قال فى ص ١٣٢ من كتابه: «ويؤيد صدق نظر المستشرقين فى هذا الزعم ما نقلناه عن ابن هشام نفسه، من ثناء الرسول على مخيريق وقوله: «مخيريق خير اليهود»؛ فإنه لم يقل ذلك إلا لأن مخيريقًا لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود».

تحريف

ولكى يموّه المؤلف على قارئيه بأن مخيريق ظل من اليهود - حتى بعد إيمانه بأن نصر محمد حق، وبعد استشهاده فى سبيل نصرة الدين الذى جاء به محمد، وبعد وَصَاته بأن يكون ماله لمحمد يصنع فيه ما أراه الله - عمد إلى عبارة ابن إسحاق فغير منها وبدل، فحذف منها ما أراد وحرف منها ما أراد، وفرق بين أجزائها وباعد بين معانيها، حتى تصل به إلى مراده.. ويحسن

بنا أن نذكر نص العبارة كما أوردها المؤلف فى كتابه، لكى يقارن القارئ بين النصين، ويرى بعينه مدى الفرق بين الاتجاهين :

قال المؤلف : «ولم يشترك أحد من اليهود فى موقعة أحد إلا رجل اسمه مخيريق. كان رجلاً غنيًا كثير النخيل، وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد فى علمه، وغلب عليه إلْف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد» ثم فصل بفقرة من كلامه هو، ذكر فيها سبب امتناع بنى النضير عن الخروج ثم عاد إلى النص فأورد بقيته هكذا. «ولكن مخيريق اليهودى قال : لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أُصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ما شاء. ثم غدا إلى رسول الله فقاتل معه حتى قتل. فقال الرسول : مخيريق خير اليهود» ثم حذف من العبارة أولها - وهو قول ابن إسحاق : «كان حَبْرًا عالمًا» - ليوهم القارئ أن مخيريق كان فردًا عاديًا وليس من أهل العلم والتبحر فى الدين، ثم حذف منها ثانيًا كلمة «إذا» ليقف بالكلام عند كلمة «أحد»، فانقلب المعنى إلى عكس ما أراد ابن إسحاق.

فأنت ترى أن المؤلف بدأ كلامه عن مخيريق بالتصغير من شأنه، ثم حرّف فى كلام الرسول نفسه فزاد الألف واللام فى كلمة «يهود»، مع أن السهَيْلى صاحب «الروض الأُنُف» وقف

طويلاً عند هذه الكلمة يحللها، حتى انتهى منها إلى أن مخيريق قتل مسلمًا لا يهوديًا.

وهكذا يدور المؤلف ثم يدور حول الغرض الذى يرمى إليه حتى يُجهِد القارئ ويُعْنِته، ثم يتركه حائرًا بين الشك واليقين. ولكن هذا اللف والدوران قد يجهد المؤلف نفسه حتى ينسى ما كتب، فيكتب بعده ما يعارضه، فيناقض نفسه بنفسه.

تناقض

فقد قال المؤلف قبل ذلك فى ص ١٣٢ من كتابه، مبررًا عدم اشتراك اليهود فى أحد: «وكانت موقعة أحد يوم سبت، فأبى اليهود أن يحملوا السلاح فى ذلك اليوم، ورفضوا الاشتراك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد، معتمدين على أن المعاهدة التى كانت بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التى تقع بعيدًا عن المدينة كما ذكرنا سابقًا».

ثم قال بعد ذلك فى ص ١٣٥، مبررًا غضب الرسول عليهم لعدم اشتراكهم: «وليس معقولاً أن يغضب الرسول من بنى النضير لعدم خروجهم إلى الوغى فى وقعة أحد، دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها».

فالمعاهدة فى رأى المؤلف غير ملزمة لليهود بالاشتراك فى الحرب خارج المدينة، حين يريد أن يبرر بها قعودهم عن الخروج يوم أحد، وهى فى الوقت نفسه ملزمة لهم، حين يريد أن يبرر بها غضب الرسول على بنى النضير.. أليس هذا تناقضًا؟ أليس هذا التناقض وحده كافيًا لهدم الفكرة من أساسها؟ ثم أليس من التناقض أيضًا أن يكون العهد الذى بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود ملزمًا لبنى النضير فى الدفاع عن المدينة، وغير ملزم لبنى قريظة؟ أليس الجميع أبناء ملة واحدة وأبناء وطن واحد؟.. ولكن الدكتور إسرائيل لا يبغى إلا الوصول إلى غرضه، وأن يضع فى رأس القارئ - بأى وسيلة - أن رسول الله غضب على بنى النضير وأجلاهم عن المدينة لأنهم لم يشاركوه فى واقعة أحد، وإن خالفه فى ذلك كل المؤرخين وإن نقض هو ما قرره بنفسه من قبل من «أن المعاهدة التى كانت بينهم وبين الرسول تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التى تقع بعيدًا عن المدينة»!

على أنه كان ينبغى للدكتور إسرائيل أن يعلم أن الله نهى المؤمنين فى كتابه أن يتخذوا من اليهود بطانة، وكشف لهم عن دخيلتهم كشفًا صريحًا واضحًا لا يدع مجالاً للشك فى عداوتهم للإسلام وأهله.. فلم يكن من العقول أن يخالف الرسول عن

أمر ربه فيشرك معه اليهود فى حربه. وإلا، فأى موقف غير موقف الحرب كان أجدرَ أن يُحذَر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون هذه البطانة؟

مكابرة

وكما أراد الدكتور إسرائيل أن يثبت أن النبى ﷺ أعلن الحرب على بنى النضير أنهم لم يشاركوه فى غزوة أحد، أراد أن ينفى عن بنى النضير أنهم هموا باغتيال النبى، فقال فى ص ١٣٦ من كتابه: «ويذكر مؤرخو العرب سببًا آخر لإعلان الحرب على بنى النضير، غير امتناع اليهود عن الاشتراك فى يوم أحد واعتذارهم بيوم السبت، فيقول ابن هشام». ثم ساق الرواية السابقة على أنها لابن هشام لا لابن إسحاق، ثم عقب عليها بقوله: «لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية، ويستدلون على كذبهم بعدم ذكر لها فى سورة الحشر التى نزلت بعد إجلاء بنى النضير».

وكأنما أحس المؤلف أن هذا الاستدلال ليس كافيًا لتكذيب كل مؤرخى العرب وإنكار صحة الرواية العربية، فاستدرك قائلًا: «على أننا لو سلمنا بصحة هذه الرواية فإننا لا نجدها كافية لإشهار الحرب على جميع بطون بنى النضير، إذ نعلم من

نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود، أن كل جرم من جهة فرد أو عدة أفراد، يقع عقابه على فاعليه وأهل بيتهم، دون أن يمس غيرهم بشيء من الأذى».

فأما إن سبب إعلان الحرب على بنى النضير لم يذكر فى سورة الحشر بالشكل الذى يريده المستشرقون فهو صحيح، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ يعرض الحوادث «عرضًا تاريخيًّا مسلسلاً بقصد التسجيل، إنما هو يعرضها للعبرة والتربية، واستخلاص المعانى الكامنة وراء الحوادث، ورسم سمات النفوس وخلجات القلوب، ويصور الجو الذى صاحبها، والسُّنن التى تحكمها، والمبادئ الإنسانية التى تحققها»[1]؛ فهو لا يعرض للحوادث إلا بمقدار ما يلفت النظر، أو يمس القلب، أو يوقظ الوجدان.

على أن السبب الذى ينكر المستشرقون وجوده قد ذكر فى سورة الحشر، ولكن على طريقة القرآن لا على طريقة المؤرخين، وذلك حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسوله ومن يُشاقِّ الله فإنَّ الله شديدُ العقاب﴾[2]. ثم أشير إليه مرة أخرى فى سورة المائدة، وذلك حيث يقول عز وجل،

(١) فى ظلال القرآن.
(٢) سورة الحشر الآية ٤.

مذكرًا رسوله والمؤمنين بنعمته عليهم ووقايته لهم من كيد أعدائهم : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم واتقوا الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[1].. فقد ذكر ابن إسحاق - كما ذكرت طائفة من أئمة التفسير - أنها نزلت فى شأن بنى النضير حين هموا بقتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

طابع الجريمة ونتائجها

وأما أن الرواية العربية على فرض صحتها غير كافية لإشهار الحرب على جميع بطون بنى النضير، كما تنص المعاهدة الكبيرة بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود.. فأمرفيه نظر، ذلك أن الذى هم بقتل الرسول لم يكن فردًا ولا أفرادًا بصفتهم الشخصية، إنما كانوا زعماء بنى النضير الذين بيدهم الحل والعقد، والذين ذهب إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليفاوض فى أشخاصهم القبيلة بجميع بطونها وعشائرها، فهم حين يهمون بأمر إنما يهمون به باسم القبيلة كلها لأنهم كبراؤها وسادتها، وليس ينفى عن القبيلة تهمة الجريمة أن يقوم بها فرد أو

---

(١) سورة المائدة الآية ١١.

أفراد من هؤلاء. فالجريمة إذن ليست جريمة فردية حتى يؤاخذ بها الأفراد الذين هموا بها دون غيرهم.

ثم إنه ينبغى أن يوضع فى الميزان ما كان ينتج عن الجريمة لو تمت، فهى لم تكن جريمة عادية واقعة على فرد عادى، إنما كان جرمها واقعًا على المؤمنين جميعًا فى شخص رسولهم صلى الله عليه وسلم، فكانت نتائجها أخطر النتائج وأسوأها عاقبة، لأنها القضاء على دين الله الذى جاء به رسوله نورًا وهدى للناس كافة، فهم بهذا إنما ﴿يريدون أن يُطْفِئوا نُور الله بأفْواههم ويأبى الله إلَّا أن يُتِمَّ نوره ولو كَرِه الكافرون﴾[1]. ومن أجل هذا عبر القرآن عن هذه الجريمة على أنها جريمة جماعية همت فيها جماعة بالاعتداء على جماعة، فلو أنها كانت جريمة فردية كجريمة كعب بن الأشرف لكان للمؤلف أن يقول ما قال.

على أن النصوص التى يشير إليها المؤلف فى المعاهدة الكبيرة إنما جاءت بألفاظ العموم التى تتسع للفرد وللجماعة معًا: «من ظلم وأثم فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته. من فتك فبنفسه فتَك وأهل بيته.. لا يَكسب كاسب إلا على نفسه.. ومن خرج آمنٌ ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم»..

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٢.

لا شك إذن فى أن العقاب الذى أنزله الرسول صلى الله عليه وسلم ببنى النضير كان مكافئًا للجريمة التى هموا بها، ولا شك فى أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن ليخرجهم من المدينة، إلا بعد أن تأكد له أنهم قد بيّتوا نية الغدر، وأن بقاءهم فى المدينة قد غدا خطرًا عليه وعلى دعوته؛ ولا شك فى أنه لم يكن يريد أن ينتقم إلا لدين الله الذى أرادوا أن يهدموه بقتل رسول الله وهذه شِنشِنَة عُرف بها اليهود من قديم، وشهد الله بها عليهم فى كتابه حيث يقول سبحانه: ﴿لقد أخذْنا ميثاقَ بنى إسرائيل وأرسَلْنا إليهم رسلا كلَّما جاءهم رسولٌ بما لا تهوَى أنفسُهم فريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون﴾[1].

* * *

هذه غلطة تاريخية - بل سقْطة تاريخية عظيمة - كان لا بد أن نقف عندها حتى نصححها، فإن وجه الحق فيها كاد أن يطمسه المؤلف ويُعمِّيه على ناشئتنا ومُحدثينا.. ولنعُدْ بعد ذلك إلى ما كنا فيه من سياق هذه الغزوة..

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٠.

غزوة بنى النضير

قال ابن سعد: «وبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، محمد بن مَسْلَمة: أن «اخرجوا من بلدى، فلا تساكنونى بها وقد هممتم بما هممتم بها من الغدر.. وقد أجلتكم عشرًا، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه». فمكثوا على ذلك أيامًا يتجهزون.. فأرسل إليهم ابن أبىّ: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصنكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان».. فطمع حُيَىّ بن أخطب فيما قال ابن أبىّ، فأرسل إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، «إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك».. فأظهر صلى الله عليه وسلم التكبير وكبر المسلمون لتكبيره، وقال: «حاربَتْ يهود».. فسار إليهم فى أصحابه، فصلى العصر بفضاء بنى النضير، وعلى، رضى الله عنه، يحمل رايته؛ واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. فلما رأوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، واعتزلتهم بنو قريظة فلم تُعِنْهم، وخذلهم ابن أبى وحلفاؤهم من غطفان، فأيسوا من نصرهم. فحاصرهم رسول الله ﷺ وقطع نخلهم،

فقالوا : نحن نخرج من بلادك.. فقال : «لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل من أموالكم، إلا الحلْقة» أى السلاح - فنزلت يهود على ذلك.. وحملوا النساء والصبيان وتحملوا على ستمائة بعير».. «فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[1] بابه، فيضعه على بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى «خَيْبر» ومنهم من سار إلى الشام.. وخلّوا الأموال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكانت له خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين دون الأنصار»[2].

قسم الرسول غنائم بنو النضير على المهاجرين وحدهم

قال صاحب الإمتاع : «فلما غنم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بنى النضير، بعث ثابت بن قيس فدعا الأنصار كلها، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم فى منازلهم، وأثَرَتَهم على أنفسهم ثم قال : «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علىّ من بنى النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم»..

(١) النجاف : عتبة الباب.

(٢) ابن إسحاق.

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا.. ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله..! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار»..! وقسم ما أفاء الله عليه على المهاجرين دون الأنصار، إلا رجلين كانا محتاجين - سهل بن حنيف وأبا دُجانة - فأعطاهما. ووسع صلى الله عليه وسلم فى الناس من أموال بنى النضير».. وأسلم من بنى النضير رجلان على أموالهما فأحرزاها.

وكانت غزوة بنى النضير فى ربيع الأول من السنة الرابعة (يونيه ٦٢٥)، وفى شأنها أنزل الله تعالى سورة الحشر، فبرَّر ما فعل المؤمنون من تقطيع النخيل وحصر العدو حتى أخرجوهم من ديارهم بإذن الله، وتوعد المنافقين الذين ناصروا الكافرين وحرضوا على الله وعلى رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وأصْفَى الله لرسوله ما أفاء عليه من أموالهم «فكانت خالصة له، فأعطى من أعطى منها وحَبَس ما حبس. وكان يزرع تحت النخل فى أرضهم، وكان يدَّخر منها قوت أهله سَنَةً من الشعير والتمر.. وما فضل جعله فى الكُراع[1] والسلاح وعُدَّة الحرب فى سبيل الله.. وكانت صدقاته منها ومن أموال مُخَيرِيق[2].

(١) الكراع : الخيل. (٢) إمتاع الأسماع.